



يوزع بشار الأسد سوريه على شكل حصص لروسيا وإيران، وحتى على المليشيات الحليفة، كل الأصول الإستراتيجية والاقتصادية، من غاز ونفط وفوسفات وشركات خليوي وعقارات، ومن موانئ وقلم جبال وموقع إستراتيجية وأراض زراعية، صارت موزعة باتفاقيات وعقود بيع وتأجير رسمية.

وإن استقرت الأمور على هذه الشاكلة، فهذا يعني أن السوريين، موالاة ومعارضة، لن يكونوا أكثر من عمال مياومين في المصالح والاستثمارات الإيرانية والروسية، وربما يتحول المحظوظون منهم إلى موظفين أمنيين (سيكورتي) وحراس لتلك المنشآت، مع ملاحظة أن بعض تلك الاتفاقيات اشترطت عدم اقتراب السوريين من المواقع والمنشآت التي تديرها روسيا، بعيداً عن شكل انتماءاتهم السياسية.

بالطبع، يدرك نظام الأسد هذا الأمر جيداً، لكنه يستمره باتجاه آخر، حيث يعتقد أنه كلما ورط إيران وروسيا بمشاريع لهم في سوريا ضمن استمرار بقائهم في الجغرافيا السورية، وضمن أيضاً دوام حمايتهم له من أي مطالبة دولية محتملة، بإحالته إلى المحاكم الدولية، نتيجة أعمال الإبادة الوحشية، والتي لن تستطيع أي دولة ونظام، عدا إيران وروسيا، وربما بعض الأنظمة القمعية، إعادة تأهيله والتعاطي معه بسبب تلك الجرائم.

يندرج كل سلوك نظام الأسد وتصرفاته وأفعاله تحت خانة الهروب من اللحظة التي يصحو فيها العالم من صدمة الحرب، ويعصي نتائجها المهولة، مئات آلاف القتلى والمخففين، وملابين الجرحى والمعوقين والمضطربين نفسياً. ولا شك أنه لحظة توقف صوت المدافع، لن يكون هناك سوى صوت المنظمات الدولية التي ستكتشف عن آلاف المجازر والمقابر الجماعية، وتستقصي خرائط المذبحة التي يخفي نظام الأسد الجزء الكبير منها.

تشكل عملية توزيع سوريا حصصاً بين إيران وروسيا أحد بدائل الأسد للنجاة من مصير المحاكم الدولية، غير أن ثمة بديلا آخر، طالما سعى إلى اللعب عليه، وهو استمرار الحرب أطول فترة زمنية ممكنة. وعلى الرغم من أهمية هدف إخضاع

الخصوم نهائياً، يراهن الأسد على هذا الخيار (دوم الحرب) باعتباره مخرجاً له من المصائر المحتملة. وبرأيه أن تحقيق هذا الامر ممكناً، فالحرب استمرت في كولومبيا أكثر من ثلاثة عاماً، وصراع تركيا مع حزب العمال الكردستاني دام عقوداً، وفي الحالتين لم تتوقف عجلة الحياة في البلدين، كما استمتع رؤساء البلدين بعلاقات دولية جيدة وحياة شخصية لائقة. مع استمرار الحرب أيضاً، وبذرية استعادة كامل سوريا، ربما لإعادة حصصتها من جديد، سيضمن الأسد سكوت أنصاره وولاءهم، فهذه الفتة، بلا شك، أصيّبت بجراح منهكة وقاتلة طوال سنوات الحرب، لكن سخونة الدماء منعها من السقوط، ويخاف نظام الأسد أن يؤدي توقيف الحرب إلى بروز جرحها واكتشافها كم هو عميق وقاتل.

لا أحد سمع من بشار الأسد قوله إنه انتصر في الحرب، على العكس، وفي كل تصريحاته، ما زال يتحدث بنبرة تشي وكأن الحدث ما زال في أوله، يعكس حلفائه من الإيرانيين، ويختلف حتى مؤيديه الذين احتفلوا بسقوط حلب، ولا يعكس هذا الأمر تواضعاً لم يتصل به، ولا واقعية ليست معهودة في الشخص الذي وصفه كل من التقاه في الأعوام السابقة بالمفصول عن الواقع، والهاني بترهات أغرب من الخيال.

الأدهى من ذلك كله أن الأسد لا يهادن، ولا يتعامل بأسلوب تهدئة الجبهات وتقليل الأعداء، فعلى الرغم من هجوم حدة الانتقادات الإقليمية والدولية ضد سياساته، إلا أنه لا ينفك يهاجم أوروبا وقيمها وموافقها (تصريحاته للإعلام البلجيكي)، ولا يتبع من التطاول على تركيا ودول الخليج، وكأنه يرفض مناخيات الهدوء، ويعتبرها خطراً حقيقياً عليه. لذا، يفضل دائماً ضخ مزيد من التوتر في شرائين الأزمة لتحافظ على منسوب اشتغالها.

لكن، إلى متى يستطيع بشار الأسد الاعتماد على هذه اللعبة في إدامة حكمه وإفلاته من المسائلة عن حرب الإبادة ضد السوريين؟ في الواقع، في الوقت الذي يعتقد فيه الأسد أنه يؤسس منظومة حماية كاملة تقىه شر الأيام المقبلة، فإنه، ومن دون أن يدرى، يقوم بتخصيب بذرة فنائه بيده، ذلك أن روسيا وإيران لن تتمكنا من الاستفادة من مشاريعهما السورية، في ظل استمرار الأسد، وإنهما سيكونان مضطرين من أجل اعتراف الآخرين بمصالحهما واستثمارهما في سوريا إلى استبدال الأسد وإزاحته من المشهد، صحيح أنهم لن يأتوا بأحد التأثيرين عليه مكانه، لكن بالنسبة للأسد كل بديل عنه هو عدو حقيقي، حتى لو كان شقيقه ماهر الأسد، وصراع والده حافظ الأسد وعمه رفعت على السلطة خير دليل على هذه الحقيقة.

من جهة أخرى، كان على بشار الأسد أن يدرك أن مفاعيل توزيع سوريا آنية، ونوع من سداد الحساب بالنسبة لإيران وروسيا، وليس استثمارات مستقبلية وأبدية، تلك لها حساباتها المختلفة، وطالما أن المفاوضات قد بدأت وصار هو نفسه موضوعاً للتفاوض، فإنها إن لم تبدأ به ستنتهي به حتماً، بوصفه من عناوين الأزمة التي سيجري تفكيرها. ولن يطول الأمر كثيراً في ظل الزخم والحماسة الروسية، للوصول إلى تسوياتٍ غايتها الأساسية الاعتراف بالدور الروسي العالمي، وما عدا ذلك هامشٌ وقابل للتفاوض.